لم أكن أدري يقينًا مَن هو، ولا ما هي مؤسسته؟!

تسرب إلىٰ أذني اسمه.. الدكتور جعفر..

نعم، الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية والنائب الأسبق لجامعة الأزهر الذي كان حاضرًا بصفته الأمين العام لـ(مؤسسة اقرأ).

أبدىٰ الرجل موافقته علىٰ اقتراح الدكتور عويس.. وهممت بالانصراف، وقد وقع في نفسي أن أنتظر الدكتور عويس بالخارج..

وكأنه قرأ ما في نفسي، فسألني:

- إنت مسافر البلد؟!

- نعم.

- معي السائق بالخارج، أعطه رقم هاتفك.. وخذ أرقامي وعنواني في المحلة الكبرىٰ، وفي انتظار زيارتك لي.

كان العرض أكبر مما أتخيل!

ما زلتُ أذكر خفقان قلبي خفوق طائر صغير عندما أعلن عن رغبته في لقائي ثانية.

وانصرفتُ أُتمتم.. [لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا]

ومن هنا كانت البداية....

يبدو أنها دعوة أمي!

«فالطريق إلىٰ استئناف الخيريّة واسع ميسور... لو صحت منا العزائم والنيّات».

ربما لا أستطيع وصف مشاعري بعد انتهاء المناقشة وخروجي من المؤسسة..

إن أقصىٰ ما تمنيته حينها أن أحظىٰ بمقابلة الرجل..

مجرد مقابلة تأنس منها العين، بعد أن أنست الأذن أيامًا وهي تتلقىٰ فيوضاته الماتعة عبر موجات الأثير..

ها أنذا أعود بمغانم لم أتوقعها ولم أتمنها؛ لأني ما تصورت أن تُتاح لي يومًا..

حظيتُ بوعد بوظيفة مرتقبة في وقت عزَّت فيه الوظائف، ورافقها المركز الأول بإجماع اللجنة الموقرة..

أيام قليلة وظهرت نتيجة المسابقة، وكنت الأول رغم أني أصغر المتسابقين قاطبة..

في نهاية الأمر التحقت بالرابطة، وولجت عالما جديدًا، وكان عليَّ أن أنتقل إلىٰ القاهرة؛ لأقيم مع صديقي ياسر الشاذلي الذي تعرفت إليه من خلال صديق العمر أحمد يحيىٰ..

وما تلىٰ ذلك من أيام أضيف إلىٰ دائرة حياتي الجديدة أصدقاء جدد، لاسيما أصدقاء العمل أحمد سليمان، وياسر عدوي، ثم

الصديق السوداني المثقف محمد حيدر.. ومع ذلك ظلّ إحساس الغربة يظلل عالمي، ويثقل بقيةَ يومي بتيه الفراغ.

حقًا.. كنتُ تائها عن نفسي، وليس ثمة أنيس سوىٰ صاحبنا الشاذلي صاحب القلب الطيب والخلق النبيل، يأتي من عمله في وقت متأخر من الليل فتتسامر ونتضاحك ونتجاذب أطراف الحكايا والفكاهات، وسرعان ما أنام فيُكمل هو المسيرة.

في هذه الأثناء كان الدكتور عويس كثير السفر لحضور الفعاليات المختلفة، مرة أسأل عنه فأجده في الجزائر، ومرة في الهند، وأخرىٰ في السعودية، وهكذا دواليك..

وفي يوم كنت أجلس مع عمِّ عواد ــ رحمه الله ــ مدير مكتب الأمين العام للرابطة، وهو يأنس لي ويحكي لي بطيبته المعهودة وتلقائيته عن السنوات الطويلة التي عاشها في السعودية مع أعلام الفكر والدعوة الإسلامية أمثال الشيخ منَّاع القطان، والشيخ سيد سابق، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد الراوي وغيرهم.. لكم كنت أغبطه علىٰ هذه الصحبة الطيبة.

دار الحديث عن الدكتور عويس فعلمت أن العلاقة بينهما وطيدة، وقصصتُ عليه ما كان بيننا في المسابقة، فبادر الرجل واتصل بمنزل الدكتور عبد الحليم..

لقد عاد الرجل بالأمس

كلَّمه عمي عوَّاد، وكانت المفاجأة

إنه أيضًا يبحث عني!

طلب مهاتفتي..

رددت بصوت متحشرج لا يكاد يبين، ولكن روحه الودودة ودعابته عبرت بي فوق سياج الخوف والتردد، وأزالت ما رَانَ علىٰ نفسي من رهبة الرجل والخشية من محادثته..

عليَّ أن أستجيب لدعوته الفورية التي علمت فيما بعد أنها جزءٌ لا يتجزأ من حياته، فالويل كلَّ الويل لمن يتأخر عن موعده أو يتأبىٰ علىٰ الحضور في الحين المتفق عليه، وإن طرح بين يديه الأعذار والعِلّات.. فكل ذلك غير مقبول.

إذًا.. عليَّ الحضور إلىٰ شقة الأتراك، وهي لحسن الحظ علىٰ بعد خطوات من مقر عملي..

متأخرًا عن موعدي عدة دقائق وصلتُ، ولم يشفع لي كوني أطرق عالمه لأول وهلة، حيث بادرني بقوله: لو عايز تكمل معايا ضروري تضبط مواعيدك؛ لأني لا أعرف إلا الانضباط، فاهم يا عم الشيخ وليد.

رغم التعامل الصادم، فإنني سُررت في نفسي أيما سرور، فقد جئتُ فقط لزيارته زيارة عابرة بينما هو يتحدثُ عن ملازمتي له.

يبدو أنها دعوة أمي، لا، بل وجدتي.

اعتذرتُ بشدة.. إنني هنا منذ وقت ليس بالقليل إلا أن البحث عن البناية أضناني بسبب من تشابه المداخل والمخارج.

تشاغل عني كأنه لم يسمع شيئا، وبسرعة طلب لي الغداء.

ورغم جوعي الشديد حاولت الاعتذار متلطفًا بحجة أنني لست

جائعًا، كذبتني مَعِدَتي.

لم يُجبني أيضًا.. وبدأ يسّاءل عن أصناف من الطعام لا قِبل لي بها.. أطعمة غريبة لم تعهدها أذني من قبل، فسكان الشقة كلهم من الطلاب الأتراك باستثناء آسيوي وآخر أفريقي، توافدوا علىٰ مصر للتعلم في الأزهر.

جاءت الساعة الموعودة وجاءونا بأنواع كثيرة من الطُّعُوم، وكانت (المقلوبة) سيدة الموقف.. خلطةٌ عجيبةٌ من الأرز واللحم والبطاطس والبصل، وربما الطماطم- شكَّ الراوي- توضع طبقاتٍ بعضها فوق بعضٍ، أكلة شهية جدًّا، لم يعكر صفو لذتها إلا وضع الزبادي والسلطة الخضراء بجانبها في نفس الطبق الكبير، ومن عادة الأتراك أكل الزبادي مع اللحوم أو أي مطبوخ آخر، وهو ما لا يروق لي، فما علاقة الشامي بالمغربي؟!

لاحظ الدكتور عويس تحرجي بعض الشيء من الطعام؛ فأخذ الزبادي وسَكَبَه علىٰ المقلوبةِ أمامي.

يا لتلكم الطامة!

ما تصورتُ في حياتي أن آكل مثل هذا الطعام، هو في نظري أدنىٰ إلىٰ العكِّ منه إلىٰ الأكل..

لم يترك فرصة لردِّي، ومن ثم اضطررت إلىٰ الأكل رغم بشاعة الموقف، وكانت نفسي تحدثني أن أترك الطعام وأعود من حيث أتيت ولو كلفني ذلك قطع علاقتي بالرجل، وهي لمَّا تزل وليدة في المهد..

كدت أن أصيح: ما هذه الديكتاتورية؟! كيف آكل شيئًا لا أُحبه؟!

وكان السكوت والإذعان لسبب لا أدريه...

انتهىٰ الدكتور من طعامه؛ فتنفست الصعداء، إلا أن فرحتي أبت بلوغ مبلغها، فقد صدر الفرمان السامي بألا أقوم حتىٰ أنتهي من طعامي.

وثانية كان السكوت والإذعان!

انتهينا من الطعام، وصلينا المغرب، وتحلَّقنا جميعًا حول مولانا..إنها المرَّة الأولىٰ التي يستمع إلىٰ قراءتي.

صلينا العشاء ودخلنا في درس آخر، فكنت أقرأ من الكتاب، والدكتورعويس يشرح ويتدخل بالتعليق وقت الحاجة.

لقد تأخرتُ علىٰ صديقي (ياسر)، إنه الآن ينتظرني علىٰ العشاء، من المؤكد أنه قلقٌ لا محالة.

كنت أرجوه الانصراف من وقت لآخر دون جدوىٰ... لقد صدر قرار آخر بالمبيت معه هذه الليلة.

لكَ الله يا ياسر..

تعشَّ وحدك، واسهرْ وحدَك، واصحْ في الصباح وحدك..

بل من اليوم تعود أن تصحوَ دائما وحدك.